الخصوصيات الجغرافية في سياقات الفرجات التراثية بالواحة والصحراء..
تمثلات العناصر الطبيعية في فنون الفرجة الدرعية

إسماعيل الوعرابي
طالب باحث بكلية الآداب والفنون، جامعة بن طفيل القنيطرة
إشراف: الدكتورة نورة لغزاري / الدكتور حسن يوسفي
المملكة المغربية

الملخص:

تتقفى هذه الدراسة آثار الخصوصيات الجغرافية والطبيعية في سياقات الفرجات والفنون، وهو في الوقت ذاته استدعاء للهوية المحلية واستنطاقها والتعريف بها ضدا في التآكل الذي يطالها في زمن العولمة الجارف، مما يجعل من كل دراسة علمية للفرجات هو نفسه مسار دراسة تطور المجتمعات وبنياتها وتبين معالم الثقافة الأصلية والدخيلة، وتندرج هذه الدراسة التي نحاول من خلالها بسط مقاربة سوسيولوجية لبعض مظاهر التراث الثقافي في المجال السوسيوثقافي للمجتمع الدرعي متوقفين عند مجاله الجغرافي والطبيعي ورمزية مكوناته، متتبعين دون إغراق في التاريخ للامتداد الحضاري لهذه المنطقة وأنماط العيش عند قبائلها، من خلال تسليط الضوء على مؤسسات ثقافية تقليدية، التي كانت تضطلع بوعي كبير بنقل التراث وحفظه وصيانة تراثها المحلي كالزوايا والأسواق الأسبوعية والأنشطة الفلاحية والحياتية، متتبعين بذلك أثر الفرجة في هذه الخصوصيات التي شكلت جزءا مهما من الهوية الثقافية الدرعية بمختلف روافدها القائمة على التعدد والتنوع، والانفتاح التاريخي المبني على استقبال الثقافات في سياق الهجرات التي شهدتها واحات درعة من جهة، وإبراز أبعادها التنموية في كل استثمار قادم من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية: فنون الفرجة الدرعية، العناصر الطبيعية والرمزية الثقافية، الواحة والصحراء، التراث الثقافي اللامادي، الهوية السوسيوثقافية

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

تمهيد

نستفيد من بعض الإشارات التاريخية في كتابات الرحالين خلال العصور الوسطى وفي كتابات الحسن الوزان ومارمول الإسباني خلال القرن العاشر الهجري / 16م، أن بلاد درعة كانت تتمتع بوضع اقتصادي مزدهر، لا من حيث النشاط الزراعي وتنوع المنتوجات واستخراج المعادن وبعض الصناعات المحلية فحسب، وإنما أيضا من حيث الحركة التجارية الدائبة سواء على مستوى الأسواق المحلية المنتشرة على طول وادي درعة أو على مستوى حركة القوافل مع المناطق المجاورة كسوس وتافيلالت ودادس وبلاد هسكورة، أو مع المناطق البعيدة بشمال البلاد وبالخصوص مع بلاد السودان جنوبي الصحراء.

البعد الثقافي في الأنشطة الحياتية بوادي درعة:

تعد الزراعة والرعي النشاط الأساسي لقبائل درعة، القائم على التعاون الجماعي "تيويزي" في جميع عملياته من حرث وسقي وحصاد ودرس، فعملية الحصاد مثلا تتخللها أهازيج ومواويل أمازيغية مرفقة بزغاريد النساء، لخلق جو من الحماس بين الحصادين ولمقاومة الحر والتعب، ويتم ذلك من خلال تبادل الكلام الموزون بعبارات غاية في البلاغة والنظم، تفتح العملية بالذكر والصلاة على الرسول الكريم، ثم تشجيع المتعب على المزيد من العمل، بالإضافة إلى تصفية حسابات لتنبيه المنحرف وتشجيع الخلوق. فيصير ميدان الحصاد إلى مكان لتقوية الروابط الاجتماعية وخلق الانسجام بين أفراد الجماعة. فالغناء يعتبر كدعم نفسي يخفف تعب يوم من الكد والجهد، أما عملية الدرس فتقام في فضاء مفتوح، يسمى "أنرار" بالأمازيغية وهي بقعة أرضية مستديرة الشكل، في وسطها عمود خشبي يسمى "تكجديت". وقبل الشروع في عملية الدرس يتم ربط "تكجديت" بسلسلة من البغال جنبا لجنب حول حيث تقوم قوائمها بتهميش وتكسير الزرع فيتناوب ثلة من الشباب على العمل، فتتخلل العملية مجموعة من الأهازيج والمواويل كأن الجميع على خشبة المسرح كل واحد يلعب دورا معينا ويعمل على تأديته على أحسن وجه، وفي هذا السياق تمكن الإنسان الدرعي من إنتاج العديد من المنتوجات لعل أهمها التمور المرتبطة بشجر النخيل والحناء:

النخلة: تعتبر أشجار النخيل من الأشجار التي تتحدى التغيرات المناخية، لأنها تستطيع أن تبقى لسنوات عديدة بدون سقي، والسبب كما يقول العارفون بأدبيات الفلاحة الصحراوية، هو جذورها التي تتجدر في الأرض بشكل عمودي بحثا عن الماء، فقد كانت النخلة سببا من أسباب استقرار الإنسان ببلاد درعة فهي مصدر العيش التي يراهن عليها بشكل أساسي بسبب قلة الماء وتوالي سنوات الجفاف.

وقد أضفى النخيل على واحات بلاد درعة جمالية رائعة تذكرنا ببيت شعري في قصيدة أنشودة المطر لبدر شاكر السياب "عيناك غابتا نخيل ساعة السحر". فعلاقة الإنسان الدرعي بالنخلة لم تكن علاقة عادية تقوم على الحصول على تمورها فقط، بل شكلت عبر التاريخ جزءا من هويته، إن لم نقل هويته وكينونته التي يتباهى بها أمام الجميع فهولا

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

يلجأ إلى بيع النخلات إلا في حالات نادرة، وحتى إن باعها فسيتوارى عن أهل الدوار لأنه سينعت بنعوت لها دلالات محلية: كالمكسور أي الانقطاع النهائي عن القبيلة باعتبارها الحاضن الاجتماعي والثقافي والسياسي لأفرادها الذين يؤطرهم ما يسميه دوركهايم بالضمير الاجتماعي، فالنخلة بمثابة عقد اجتماعي ينضبط له الجميع، وبالتالي فإن بيع النخل يعد خروجا عن هذا العقد، مما يبين المكانة التي تحتلها هذه الشجرة عند الإنسان الدرعي الذي يضحي بكل شيء من اجلها، بل وتمسك بها رغم الظروف الطبيعية الصعبة، لعل أخطرها تعرض نخيل المنطقة لمرض البيوض، وفي هذا الإطار يقول الشاعر الفاطمي البزركاني الروحي عن نخلة ماتت من جراء مرض "البيوض" وهو مرض فطري يصيب النخيل ذات الثمار الجيدة ويقضى عليها ، وعجز المختصون عن إيجاد علاج له حتى الآن:

"مَا تسْتَاهْل تْمُوتْ لَلَّا النخلة، عْمَارْةْ الْخَابْيَة عْمَارْة النْفُوس"

والشيخ هنا نسب النخلة إلى الطبقة الاجتماعية الرفيعة بوصفها "لَلَّا" أي السيدة والشريفة لجودها وعطائها، ومصدر استقرار معيشي "عْمَارْةْ الْخَابْيَة"، وهي الباعثة على الاطمئنان والارتياح النفسي والقناعة "عْمَارْة النْفُوس"، وفي قوله توصيف بالغ لمكانة النخلة وتمرها، وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: "بيت لا تمر فيه، جياع أهله"، وهذا التقدير الذي منحه إياها الإسلام، زاد من رسوخ قدرها عند أهل درعة، وتنافسهم في امتلاك الباستين العامرة بالنخل، والتبرك بمواقيت غرسه وجنيه. وقد تميزت بلاد درعة على مر التاريخ، بتعدد أنواع التمور كالفكوس والجيهل وبورار وبوسكري، وهناك أنواع أخرى تبقى للاستهلاك اليومي ويأتي على رأسها ملك التمور بوستحمي أو تاحموت بالأمازيغية. كما يجب الإشارة هنا إلى أن استهلاك التمور عند الإنسان الدرعي لم يكن أمرا عاديا بل له طقوس معينة فهو يأتي بعد وجبة الفطور وغالبا ما يتم استهلاكه مع الماء أو اللبن، ولأهمية النخلة وتمورها، يمكن الإشارة إلى طقس وضع نواة التمرة في الكسكس، خلال احتفالات رأس السنة الأمازيغية "إيض ناير" ويتنافس أفراد الأسرة في البحث عنها "العلفة" وكل من وجدها تمنح له مفاتيح " بيت الخزين" للإشراف عليه يوما كاملا أو أسبوعا أو شهرا أو سنة كاملة، وتختلف الروايات والتقاليد من منطقة إلى أخرى، والشاهد هنا هو هذا التكريم لنواة التمرة التي اكتسبت هذه الرمزية من مكانة النخلة والتمر عند الدرعيين.

الحناء: تعد بلاد درعة منذ القدم محطة ،نادوسلا نم ةضفلاو بهذلا تادراو اهيف تشعتنا ،ةمهم ةيراجت هيلعو" :ةعرد يداو نع راصمألا بئاجع يف راصبتسالا باتك بحاص لوقي ،ةيعارزلاو ةيحالفلا اهترادصاب ترهتشاو ،رثكأ ءانحلا جوتنمب دالبلا هذه ترهتشا دقو ."اهريغو نوتيزلاو لخنلا نم :هكاوفلا عيمج اهيف ،ةريبكلا تانجلا رجشلا ماوق يف نوكي نتح اهب ربكي ءانحلا تابنو" قاتشملا ةهزن هباتك يف كلذ نلإ راشأ نم يسيردإلا ناكو " ونجد أيضا إشارة أخرى في كتاب الاستبصار: تاهجلا لك نلإ هب زهجتيو ،هرذب ذخؤي اهنمو ،هيلإ نودعصي "والحناء بدرعة كثيرة، ومنها تجلب إلى جميع البلاد لطيبها"، وأشار إلى كثرتها في هذه البلاد، ابن سعيد في مؤلفه "، لذلك برغملا راطقأ نلإ لمحت يتلا ةلضفملا ءانحلا هيلع تبني ام رثكأوبسط الأرض في الطول والعرض بقوله "

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

نجد الإنسان الدرعي دائم الاحتفاء بمادة الحناء، حتى أضحت تراثا ثقافيا وحضاريا لسكان المنطقة، ولعل تنظيم مهرجان الحناء الدولي بمنطقة تزارين يجلي في جوهره مخزون المنطقة الثقافي والحضاري الذي تشكل مادة الحناء جزء مهما من رصيده.

هذه الوقفة الضرورية عند الجغرافيا والتاريخ ، واستنطاق معطيات تخص الأنساب والانتساب، والأنشطة الحياتية المتعددة الأشكال والوظائف، أنما هو نوع من الإحاطة الهادفة إلى الشمولية في توضيح مناحي وروافد غنى الموروث الثقافي لقبائل أهل درعة، هي وقفة تترجم جماليات الإبداع التي تعكس طقوسهم وعاداتهم، وارتباطهم بما تجود به عليهم الطبيعة والجغرافيا، ما يشكل ارتباطا بين الإنسان والطبيعة، ولعل لامتداد الواحة بهذه المناطق أثر جلي في المكان والإنسان والإنتاج، وتمتد هذه الواحات من "أَفْلَا نْ دْرَى" بالمدخل الشمالي لواحة مزكيطة، إلى واحة محاميد الغزلان على مشارف الصحراء، وتتضمن هذه المنطقة ست واحات وهي على التوالي: واحة مزكيطة، واحة تينزولين، واحة ترناتة، واحة فزواطة، واحة الكتاوة، واحة محاميد الغزلان(1). احتضنت هذه الواحات تجمعات بشرية كبيرة، استفادت من ثروات هذه الواحات كالنخيل والحناء والطلح...، إلى جانب دورها الاقتصادي كمحطة أساسية في تجارة القوافل الصحراوية.

تمثلات العناصر الطبيعية في الإبداع والفنون التراثية بدرعة

كما أن تنوع العناصر الطبيعية، أرخى بظلاله على أنماط العيش والبنية الثقافية للمجتمع الدرعي، ونشير هنا إلى بعض هذه العناصر الطبيعية، التي تجاوزت حدود إطارها الطبيعي، لتمتد مشكلة العناصر الرئيسة للبنية الثقافية للمبدع الدرعي، فترسخت بذلك في مخياله، منعشة ذاكرته الإبداعية، فالوادي، والواحة، والجبل، والصحراء عند الإنسان الدرعي، هي تماما نفس العناصر التي يبني عليها الشاعر العربي قديما نظمه وقصائده، وتحضرنا الأبيات الشهيرة للشاعر الألمعي أبي الطيب المتنبي:

الخَيْلُ وَاللّيْلُ وَالبَيْداءُ تَعرِفُني ♦ وَالسّيفُ وَالرّمحُ والقرْطاسُ وَالقَلَمُ

صَحِبْتُ فِي الفَلَواتِ الوَحشَ منفَرِداً ♦ حتى تَعَجّبَ مني القُورُ وَالأَكَمُ

بهذا المعنى، ينسحب البعد الطبيعي من هذه العناصر، ليفسح المجال أمام البعد الإبداعي والروحاني، فيتداخل البعدان وينسجمان ليجعلا من هذه العناصر طاقات روحانية وإبداعية تغذي المكون الثقافي عند المجتمع، وفيما يلي تمثيل لهذا التداخل:

- الوادي: "وَادْ دْرَى" طاقة روحانية، وبطاقة هوية وانتماء:

1أحمد البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لدرعة: دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية، آفاق متوسطية، الدار البيضاء، المغرب ط.1 1994 ، ص7.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

يعتبر وادي درعة المجمع الأساسي لمياه مختلف الروافد الآتية من السفوح الجنوبية للأطلس الكبير، وخاصة دادس ومكون، ثم واد المالح وإميني، ويصنف وادي درعة ضمن الأنهار شبه الصحراوية، ويعد مصدر منبع الحياة بالنسبة للمجال الدرعي، خاصة في فترات ضعف التساقطات التي تطبع مناخ هذه المنطقة، وبفضله تمكن الإنسان الدرعي من إنتاج مجموعة من المنتجات التي عمرت جميع أسواق المغرب ونخص بالذكر هنا: التمور، الحناء، النيلج... يستقر وادي درعة في ذاكرة الإنسان الدرعي استقرارا كبير الأثر، لما لهذا المنبع من مركزية في ازدهار الحياة الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية، إنه هبة درعة وصانع هيبتها، تماما كما اعتبر المؤرخ الإغريقي هيرودوت "مصر هبة النيل".

إن مركزية هذا الوادي لا تقف عند مستوى مجراه المائي والطبيعي بل تمتد في ثقافة الدرعيين إلى اعتباره طاقة روحانية، وبطاقة هوية وانتماء، وامتد بذلك إلى أشعارهم وكلامهم وحكايات جلساتهم، فإذا جف الوادي جف الدرعيون ويئسوا، وإذا فاض الوادي فاض الدرعيون وانتعشت قصائدهم وحكاياتهم وأزهرت بذلك حقولهم، تحكي الحكايات المتواترة عن شيخ كبير من أعيان زاكورة، حضر مراسيم افتتاح سد المنصور الذهبي بورزازات سنة 1971م، وهو السد الذي يحجز مياه وادي درعة عن زاكورة، حينما سئل أين كان، فأجاب بلغته الدارجة: "مشينا دْفنا واحد الشيخ". وعلى الرغم من مركزية سد المنصور الذهبي في توفير المياه والكهرباء لأقاليم درعة وحمايتهم من فيضانات الوادي، إلا أن كل حجز لمياه وادي درعة عن واحات درعة، يعتبر موتا لهذا المجال الجغرافي، الذي لا يمكن أن يحيا إلا بالوادي.

- الواحة: محمية القيم ورمز العطاء

تعتبر الواحة مساحة خضراء في الصحراء أو أرض قاحلة، وأصبحت كذلك بفعل وجود الماء والأشجار المعمرة كالنخيل، وتمثل واحات درعة بيئة متفردة ومتميزة، تتموقع بالجنوب الأوسط من المغرب، هذا الموقع الاستراتيجي خول لها في أزمنة متعددة لعب دور الوسيط والمنشط التجاري بين إفريقيا جنوب الصحراء والمناطق الشمالية من إفريقيا، وقد استقر الإنسان الدرعي بهذه الواحات، بفضل توفر العناصر الأساسية للحياة كالماء والتربة الخصبة، إن الموقع الجغرافي للواحات في درعة، باعتبارها مجالا محدودا وسط امتداد صحراوي قاحل يصعب العيش فيه، هو ما يجعل من الواحة جغرافيا واجتماعيا محمية حقيقية للقيم والمكارم، كما تثمر النخيل وتجود الأرض وتزهر الأشجار، يعظم الكرم والجود وتزدهر الفضائل، هذا التوافق بين الطبيعة والقيم، شكل حصن درعة الذي ألهب خيال المبدعين منذ القديم وحتى عصرنا الحالي لازالت الواحة تفي بكل عهودها في العيش والكسب والعطاء ومكارم الأخلاق التي تميز طبع الدرعيين، فهي بذلك، أي واحة درعة، ليست منطقة للاستقرار فقط، بل تتجاوزه إلى كونها فضاءات تزخر بالمناظر الطبيعية والقيم والفرجة وبالتراث الثقافي الغني والمتنوع.

- الصحراء: مبعث القداسة وقصة الوفاء

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

تحتل الصحراء مجالا شاسعا في بلاد درعة (خاصة درعة الوسطى والسفلى) ما جعلها تحظى بمكانة كبيرة وخاصة، إنه تمرين حياتي صعب في العيش، هذا الإنسان المرن استطاع أن يكيف نمط عيشه الذي يعتمد أساسا على الرعي والترحال وعدم الاستقرار مع الصحراء، فتحول بذلك هذا المجال الصعب إلى فضاء يسع الإنسان الدرعي الصحراوي، فالصحراء ونمط العيش فيها، الذي فرض عليه، جعلها جزءا لا يتجزأ من هويته الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية، فرغم كل الظروف المناخية القاسية منها والجغرافية، إلا أنه استطاع أن يتأقلم وينصهر في وهد الصحراء، ويتجاوز تلك الظروف الطبيعية غير الملائمة، بدلا من الإذعان لها، غير أن علاقته بهذا المجال لا تزال وطيدة، يكتنفها التقديس والوقار، وأكثر من مجرد مكان للاستقرار، إنها قصة وفاء للمكان، هذا المكان الذي يثير في دواخله ووجدانه سؤال الانتماء والهوية.

- الجبل رمز الشموخ ومواقع الاحتماء

يحضر الجبل بقوة في مجال درعة، حيث كان له تأثير مباشر على طبيعة المجتمع الدرعي، وانفراده بمجموعة من الخصال كالصبر والشجاعة والتضحية والأصالة، ويضم هذا المجال عددا مهما من الجبال في مقدمتها "جَبَل صَاغْرُو" و"جبل تيفْرْنينْ"، وهما عبارة عن كتل بركانية قاتمة اللون، غير قابلة للاستقرار البشري بصفة عامة، وتفصل هذه الجبال بين واحات درعة في الجنوب، وبلاد دادس وهسكورة وورزازات في الشمال، و"تكتنف واحات درعة جبيلات متوسطة الارتفاع أهمها "جبل كيسَانْ" الذي يشرف من الناحية الغربية على واحة مزكيطة، و"جبل بُوزَرْوَالْ" و"تُودما" في واحة تينزولين. ويشرف "جبل باني" على الواحات الجنوبية، ويمتد على شكل قوس كبير يحتضن واحات المحاميد ولكتاوة وفزواطة وترناتة، وينتهي امتداد القوس في المدخل الجنوبي لواحة تينزولين... ويخترق المجال الدرعي شبكة من الطرق البرية التي لا تزال آثارها جلية على شكل مجموعة من "المرابر" المتقاطعة المتفرعة عن المحاور الكبرى التي تربط بين وادي درعة والمناطق المجاورة"(1) مثل فج تيزي نتيشكا الذي يربط درعة بمراكش.

والجبل في إبداعات الدرعيين كما غيرهم رمز شموخهم وعزتهم، أما في تاريخ منطقة درعة والمناطق المجاورة فقد احتل الجبل مكانة خاصة باعتباره موقعا استراتيجيا في معارك فاصلة بين المغاربة والمستعمر، ويسعفنا التاريخ بكثير من هذه المواقع التي كان للجبل فيها دور رئيس في تحقيق النصر، كمعركة بوكافر سنة 1933م، حيث تحول جبل صاغرو إلى موقع احتماء للقبائل ضد القوات الاستعمارية، موفرا شموخ قممه، وأحجاره الكبيرة، وشدة انحدار سفوحه كمنصة قصف لقوات المحتل، الذي واجه صعوبات حقيقية في الوصول إلى المقاومين، إن هذا الجبل الذي بصم في تاريخ هذه القبائل لا يمكن أن يكون في ذاكرتهم مجرد تضاريس طبيعية، بل امتد في إبداعاتهم إلى كونه رمزا للشموخ وموقعا للمقاومة والاحتماء.

[1] أحمد البوزيدي، المرجع السابق، ص32.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

إن هذه العناصر الطبيعية المشكلة لجغرافيا درعة، من واحات، وديان، جبال، صحراء ... تتجاوز بالنسبة للإنسان الدرعي، مجرد كونها عناصر طبيعية، لتتسع إلى كونها فضاءات اجتماعية، اقتصادية، ثقافية، روحانية، فضاءات تستجيب لكل أنماط وأساليب عيشه، ومصدر إلهام لإبداعاته سواء الصناعية منها أو الثقافية والعاطفية، لذلك تبقى علاقته بها علاقة وجدانية، يحقق من خلالها كل آماله وطموحاته، ويتمسك من خلالها بتراثه وثقافته، فتجدها متصدرة أنغامه وأهازيجه وقصائده، ويعبر من خلال هذه الإبداعات عن قسوة الطبيعة وجفافها، ولعنة الجغرافيا وجورها، لكنها تنتمي إليه وينتمي إليها ولا يطيق الغربة عنها، فيتغنى بأطلالها ويبث نجواه في واحاتها، محولا كل مكوناتها الطبيعية إلى رموز يتغنى بها، يقول الشاعر الدرعي سفيان الكورش(1) في قصيدة يصف فيها حبه لدرعة، وصعوبة العيش فيها وقساوة الظروف المناخية، التي لا يمكن مواجهتها إلا بالصبر والجلد، لكن درعة تظل قصيدته الخالدة ومعشوقته الفريدة:

يَا الّلِي فْ دْرْعَة لَاشْ تْبْكِي؟

كِي الْعَاشْقْ عَلى غْرْبْتُو يْشْكِي

رْمَالْكْ صَابْرَة ؤُ رِّيحْ تْقْصِّي

ؤُ الشّْمْس فُوقْ رَاسْكْ دَايمًا تْسْكِي

حُبْ الصّْحْرَ فِيكْ مَا يْمُوتْشْ

ؤُصْبْرْك هُوَ الّلِي دِيمَا يْزِيدْ يْلوّح

صَبْرْكْ بْحْر مَا فِيهْشْ حْدُودْ

كُلْ صْبَاحْ عْنْدك شْمس تْولّْ

يَا دَرْعَة يَا زِينِةْ لْأَرْض لْعْتِيقَة

بْصمتك لْحكمَة ورّْمل حْكَايَة رْقِيقَة

أما امتداد هذه العناصر الطبيعية مجتمعة، ورسوخها في إبداعات الدرعيين وقصائدهم، فنمثل لها بقصيدة الشاعر الزجال مولاي عبد العزيز المكي الناصري(2) وهو يرسل ترنيمة الاستقبال الدرعي منشدا:

سْلَامْ لْعَاشق

سْلَام اللّهْ علِيكُوم

[1] سفيان بن سمير بن أحمد الكورش، شاعر وشيخ قصيدة أقلال، دوار رباط المزوار، واحة تنزولين، زاكورة، 25 سنة.

[2] مولاي عبد العزيز المكي الناصري، شاعر درعي وزجال، له دواوين زجليه أشهرها "كهف النسور".

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وْلدْكُمْ أَنَا

غِيرْ مْن هنَا

جِيتْكُومْ بلْهنَا...

سْلَام اللَّهْ علِيكُوم

يَا السَّاكْنِينْ فدْوَاخْلِي

السْلاَم بْرِيحة الدُّكَّار

السْلاَم بْطَعْم الجْمَّار

لُونْ الزّيوَان الّلِي فْعْيُونْكُم عْطَانِي لْخْبَار...

سْلَام اللَّهْ علِيكُوم

عَلَى ظْهر كِيسَان

جِيتْكُوم يَا وْلَاد لْحْرَار

وْلَادْ بلَادِي

نْعرفْهُم بْلِيد لْحْرْشَة

وُ التْرَاب فْلكْدَام

الْقْصِير فِيهُوم طْول مْن نْخلَة

مَا يْعرْفُو حِقْد

الْكلمَة عَقْد

وُ الْوَعْد بقْطِيع الرَّاسْ

مَا يْتخَان عنْد لْبرَار

سْعدِي أَنَا بْاللمَّة

لْبْلَاد دْارِي وُ لُوجُوه مَا غْرِيبَة

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

سْعدِي أَنَا بْبْلَادِي

النْهَارْ فِيهَا حَاسْد الِّليلْ

وُ الشْمس فِيهَا بْلكُمْرَة تْرَارِي

لكرَّابْ دَرْعَة

نَازْل حَازْم فِيهَا لْخِير لْلصْحَارِي

مُّو لُوْلَاد الرْملَة

وُ لْعجَاجْ نْسِيبَة...

سْعدِي أَنَا

لْبلَاد الِّلي الشْيُوخْ فِيهَا

جْنبْ لْوَاد شْجر

وُ النجُوم فِيهَا دْرَارِي

بْعنَايْتكْ يَا رْبِّي

احْرسْ بْلَادِي لْحبِيبَة...

تركيب:

إن الغاية من استدعاء هذه الخصوصيات التاريخية والجغرافية والثقافية في سياقات الفرجات والفنون، هي استدعاء الهوية المحلية واستنطاقها والتعريف بها ضدا في التآكل الذي يطالها في زمن العولمة الجارف، مما يجعل من كل دراسة علمية للفرجات هو نفسه مسار دراسة تطور المجتمعات وبنياتها وتبين معالم الثقافة الأصلية والدخيلة، إنها " ضرورة ملحة للوقوف عند الخصوصيات التي تميزها في سياق الانفتاح اللامشروط بين حدود الدول والذي يتسم بسهولة انتقال السلع والقيم وسرعة عبور التصورات والاتجاهات الفردية والجماعية للقارات، عبر مختلف آليات الاتصال والتواصل، لفهم هذا الوضع المتسم بالتعقيد يصبح المكون الثقافي في مدلوله السوسيولوجي والأنثروبولوجي أحد المداخل الرئيسية التي تسمح بإبراز الحدود الفاصلة بين المحلي والوطني والعالمي، وذلك عبر الوقوف عند السيرورة التاريخية التي أنشأته، والتمظهرات التي بصم بها الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمجموعات البشرية التي أنتجته أو التي نقل إليها بوصفه تراثا قابلا للتجديد في صيغة الإبداع"،(1) في هذا السياق تندرج هذه الدراسة التي

[1] عائشة حليم، التراث الإبداعي لدرعة الأوسط والمعيدر غنى الذاكرة التاريخية ورافعة التنمية المحلية، ضمن: التراث الأمازيغي ركيزة للتنمية بالمغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ط.1، 2017، ص 89.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

نحاول من خلالها بسط مقاربة سوسيولوجية لبعض مظاهر التراث الثقافي في المجال السوسيوثقافي للمجتمع الدرعي متوقفين عند مجاله الجغرافي والطبيعي ورمزية مكوناته، متتبعين دون إغراق في التاريخ للامتداد الحضاري لهذه المنطقة وأنماط العيش عند قبائلها، من خلال تسليط الضوء على مؤسسات ثقافية تقليدية، التي كانت تضطلع بوعي كبير بنقل التراث وحفظه وصيانة تراثها المحلي كالزوايا والأسواق الأسبوعية والأنشطة الفلاحية والحياتية، متتبعين بذلك أثر الفرجة في هذه الخصوصيات التي شكلت جزءا مهما من الهوية الثقافية الدرعية بمختلف روافدها القائمة على التعدد والتنوع، والانفتاح التاريخي المبني على استقبال الثقافات في سياق الهجرات التي شهدتها واحات درعة من جهة، وإبراز أبعادها التنموية في كل استثمار قادم من جهة أخرى.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المصادر والمراجع:

- أحمد البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لدرعة: دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية، آفاق متوسطية، الدار البيضاء، المغرب ط.1 1994
- عائشة حليم، التراث الإبداعي لدرعة الأوسط والمعيدر غنى الذاكرة التاريخية ورافعة التنمية المحلية، ضمن: التراث الأمازيغي ركيزة للتنمية بالمغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ط.1، 2017

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/